مثل هذا الشعر يكون ترجمة لاحساس الشاعر فما دام انه محب فله أن يعبر عما يحس ، وليس لنا أن نتهمه فى ذلك بضعف ، بل أنه يكون ضعيفا حقاً ان هو أحس عذاباً من وراء حبه ثم لم يستطع الافصاح عنه .

ولم يكن الأدب العباسى ضعيفاً ، لما جاء فيه من بكاء ومديح واستهتار ، فان الأدب فى كل عصر صورة لذلك العصر ، فاذا عبر أدباء العباسيين عما يحسون فلم نتهمهم بالضعف ؟ وإذا كان أدبهم حزيناً باكياً يتخلله المديح والاستهتار فكيف كان يتسنى لهم أدب غيره ، وإذا هم تطاولوا فى غير عزة وتفاخروا في غير فخر وضحكوا فى غير مزح ، انما كنا نتهم ادبهم بأنه سقيم زائف أو بعبارة أخرى ضعيف مائع ؟

ثم أن الضعف السياسى لا يستلزم أن يكون وراءه ضعف فى الأدب ، بل لقد يكون الضعف السياسى ذاته سببا قوياً من أسباب قوة الآداب ، كما يحدث عند انقسام الدول الواسعة كما كان الحال فى القرن الرابع ، وكما كان الحال عند الأغريق فى مدنهم الحكومية وكما كان الحال فى النهضة الايطالية الحديثة .

وليت شعرى لم لا يكون بكاء الشعوب على ما يصيبها قوة واستنهاضاً للهمم؟ هزمت فرنسا فى حرب السبعين وخرجت ألمانيا متفاخرة بالنصر ، فخاطب أحد أدباء الفرنسيين الألمان الظافرين بقوله « نعم قد انتصرتم علينا ولكن ليس لديكم شاعر يشيد بنصركم كشاعرنا هذا الذى يبكينا على مصابنا فهل كان بكاء الفرنسيين فى ذلك الوقت ضعفاً ؟ اللهم لا .

وأما ما جاء عن مصعب بن الزبير حين استخفه الطرب، وعن استخفاف المنصور به لذلك حتى جعله يتمثل بتلك الأبيات التى أوردها الاستاذ ، فاقول أن مصعبا كان متغزلا وأن المنصور كان متفاخراً وشتان بين الموقفين ، فهذا تستملح فيه الرقة واللين وذلك لا يليق فيه إلا الصرامة والشدة. وإذا كان فى كلام مصعب ضعف فماذا يكون فى كلام الرشيد وهو يخاطب جارية بهذا البيت :

أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلهم عبيدى ؟

وبعد فيعجبنى من الاستاذ قوله أن أرقى الأدب فى نظره ما احيا الضمير ، وزاد حياة الناس قوة ، وهذا فى رأيى هو الأدب الوجدانى القوى ، هو ذلك الأدب الذى يرقق القلوب ، ويستثير الهمم ويطهر النفوس ، هو ذلك الأدب الذى يجعل من الشيخ شاباً فتياً ، وهو ذلك الأدب الذى يملأ المحاجر بالدموع والقلوب بالشفقة والحنان ؟

فلسفة سبينوزا

للاستاذ زكى نجيب محمود

لم يكد سبينوزا يبلغ سن الشباب ، حتى انكب على الفلسفة يدرسها دراسة صادقت فى نفسه هوى . فأخذ ينهل من مواردها العذبة ، ويؤثرها على كل شىء . وقد طالع فيما طالع فلسفة برونو فوقعت منه آراؤه موقع الاعجاب ، وامتلأ ذهنه بما قاله ذلك الفيلسوف من: أن الوجود في جوهره وحدة متجانسة ، وان تعددت ظواهرها . اذ نشأت جميعها من أصل واحد ، ثم اتخذت الوانا مختلفة لا تغير من جوهر طبيعتها المتجانس .

كذلك اعجبه رأى برونو المذكور القائل بأن الروح والمادة شىء واحد ، فكل ذرة من ذرات الكون يتحد فيها الجانبان : الروحى والمادي ، وعنده ان موضوع الفلسفة هو ادراك تلك الوحده التى تربط هذه الأشتات المتضاربة فى الظاهر فترى الروح فى المادة ، كما تلمس المادة في الروح .

ثم قرأ سبينوزا فلسفة ديكارت قراءة درس وتمحيص ، فدعاه الى التفكير الطويل رأى ديكارت فى تقسيم الكون الى شطرين : شطر مادى متحد فى الجوهر على الرغم مما يبدو فى الأجسام المادية من اختلاف ، وشطر روحى متجانس فى جوهره كذلك ، وهو عبارة عن مجموع القوى العقليه الحالة فى مختلف الأجسام ، وتدير هذين الشطرين وتشرف عليهما قوة الهية عليا . . . قرأ سبينوزا ذلك فلم يوافق على شطر الكون ، واختمرت في نفسه على الفور فكرة وحدة الوجود التى تقول بأن الكون شطر واحد لا يتجزأ ، وهذه الفكرة هى المحور الذى تدور حوله فلسفة سبينوزا ، وها نحن أولاء نتناولها بالشرح والتحليل .

يقول سبينوزا ان فى الكون حقيقة واحدة خالدة ، هى عبارة عن قانون عام شامل لاينقص ولا يزيد . هذه الحقيقة الخالدة ، أو هذا القانون الشامل ، لا يمكن ان يعبر عن نفسه و يفصح عن حقيقته الا بواسطة الاجسام المادية ، فاتخذ من تلك المادة التي تملأ جوانب الكون ، قوالب وأشكالا لكى يبرز عن طريقها الى عالم الواقع المحسوس ، وهذه الصور والأشكال المادية التى تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك

القانون الخالد ، لا تظل على هيئة خاصة معينة ، فهي متغيرة متبدلة أبداً ، بل قد تزول وتفني ، ولكن تلك الحقيقة نفسها باقية خالدة لاتفني ولا تزول ، بل لاتنقص ولا تزيد ، وهي لاتفتأ تلبس هذا الثوب المادي وتخلع ذاك الى أبد الآبدين . ذلك كما تقول ان للدائرة قانونا لايتغير ، يخضع لناموسه كل ماوجد أو يوجد من الدوائر ، وان كانت الدوائر نفسها تمحى وتتجدد ، الا ان قانونها يظل باقياً لايعتريه التبدل أو الفناء . فاجسامنا ، وأفكارنا وهـــذه الأرض التي نعيش عليها ، وكل ما يحتوي الكون من أشياء ، كل ذلك صور مختلفة تستخدم لابراز الحقيقة الكائنة وراءها . والتي لا يمسها معنى من معاني التغيير والتبديـــل ، انما القوالب المادية وحـــدها هي التي تخضع لذلك التبديل والتغيير .

فالطبيعة على هذا الاساس مزدوجة الجوانب ، فهي فعالة حيوية منشئة من ناحية (قارن أل Elan vital في فلسفة برجسون) وهي منفعلة متأثرة منشأه من ناحية أخرى ، هـــذا الجانب المنفعل المتأثر من الطبيعة : هي اجزاؤها المادية ، هي هذه الجبال والبحار والمزارع والرياح وما الى ذلك من الصور المادية التي لايحدها الحصر ، أما الجانب الفعال المنشيء فهي تلك القوة الكامنة وراء هذه الصور المادية ، وهي التي خلقتها خلقا وأبدعتها ابداعا ، أو بعبارة أوضح هو الله عز وجل . . . ويقصد سبينوزا بكلمة « الله » ذلك القانون الثابت الذي لا يجوز عليه التغيير أو الفناء ، تلك القوة الفعالة التي تنظم الكون وتباشر ترتيب ما يطرأ من أحداث على المادة التي تملأ جوانب الكون . ولولا تلك القوانين العامة التي يسير بمقتضاها العالم ، لتداعي الكون بعضه على بعض ، مثل ذلك مثل الجسر (الكوبرى) ، فهو في حد ذاته كتلة من المادة ، ولكنه مشيد على أساس من القوانين الرياضية والميكانيكية ، التي وان تكن مختفية لا تظهر بشكل محسوس ، في مادة الجسر ، الا أنها كامنة فيه ، ولو اختل واحد منها انهار البناء على الفور . فالعالم المادي بمثابة ذلك الجسر ، والله سبحانه وتعالى من هذا العالم بمثابة تلك القوانين التي لا نرى ولكنها لا تنكر .

وعلى هذا الاعتبار تكون ارادة الله وقوانين الطبيعة شيء واحد ، وكل ما يقع من حوادث عبارة عن النتيجة الآلية المحتومة لتلك القوانين الدائمة ، أي أنها ليست عبثا ولا فوضى . فهذا العالم تسيره تلك الارادة العليا ، وليس مخيرا في كثير ولا قليل مما يفرض عليه فرضا ، وليس له عن تنفيذه محيد . والانسان — ككل جزء آخر من أجزاء العالم — يسير كذلك في هذه الطريق المرسومه ، الا أنه قد تبلغ به الانانية حدا بعيدا فيظن أنه المقصود من خلق هذا الكون الفسيح ، وان هذه الطبيعة وما فيها انما وجدت من أجله ولصالحه ، ولكن لا يجوز للفيلسوف بحال من الأحوال ان ينظر الى العالم هذه النظرة الشخصية الضيقة فواجب أن نجرد أنفسنا من نزعتنا البشرية ، حتي يتسني لنا أن ندرك الكون مستقلا عنا ، بعيدا عما تمليه أغراضنا ، وان ندرسه دراسة موضوعية (objective) كحقيقة عارية لا تؤثر فيها الميول الانسانية . فلا ننسب الخير والشر لهذا الشيء أو ذاك لأن الخير والشر نسبيان للبشر ، وليس لهما وجود في الواقع ، فاذا ماحكمنا على شيء في الطبيعة بأنه عبث وشر ، أو أنه يثير فينا السخرية . فذلك لأننا لا نعرف الأشياء الا معرفة جزئية ، ولأننا نريد أن تسير الأمور كما نشتهي نحن ، وحسب ما تمليه عقولنا ، لأننا نجهل أن الكون وحـــدة لا تتجزأ ، فما نحكم عليه بأنه شر ليس في الحقيقة شرا بالنسبة للقوانين التي تسير الطبيعة بمقتضاها . ولكنه شر بالنسبة لطبيعتنا نحن بعد فصلها وانتزاعها من تلك الوحدة الكونية . فالشر والخير أوهام لا تعرفها الحقيقة الخالدة . لا ولا الجمـــال والقبح لأنهما كذلك أوصاف أصطلح عليها الانسان . فالشيء الجميل والشيء القبيح هما في نظر القوانين العامة سواء ، ولاتفضيل لأحدهما على الآخر . هكذا يريد سبينوزا أن نجرد أنفسنا من كل النزعات والميول والأغراض وأن ننظر الى العالم من وجهة نظر الواقع ، لا من وجهة نظرنا نحن ، حتي نصدر أحكاما صحيحة ، يجب أن ننظر الى العالم نظرة مجردة كما ننظر الى المثلث مثلا ، فأنت لاتحكم عليه كما يقع في نفسك ، فيكون لك فيه رأى ولي فيه رأى آخر ، لا بل ننظر اليه بالنسبة الى القانون العام المجرد الذي يتحكم في جميع المثلثات على السواء ، فيكون المثلث عندك كما هو عندي وعند أي انسان . فلننظر اذن الى هذا العالم من وجهة نظر قوانينه الثابتة الشاملة حتى لايتغير باختلاف الميول والأشخاص ، ويزعم سبينوزا : ان تلك النظرة الشخصية قد أفسدت علينا فهم الله سبحانه وتعالى فهما صحيحا ، فأخذنا ننسب اليه صفاتنا نحن ، لماذا ؟ لأننا أبصرناه من نافذة نفوسنا ، ولم نتجرد لنطل عليه من جانب الحقيقة والواقع ، فنحن مثلا نتصور الله في صورة المذكر دائما ، ولا نرضى ان نصبغه بصبغة التأنيث ، نقول هو

ولا نقول هي ، وليس ذلك الا نتيجة لخضوع المرأة لسلطان الرجل ، كذلك ننسب اليه كل الصفات التي نراها حسنة كاملة لا من حيث الواقع ولكن من حيث حكم العقل البشري المحدود بميوله وأغراضه . وقد كتب سبينوزا في ذلك الى أحد معارضيه يقول : « اذا اعترضت على بأنني لا أريد أن أصف الله بالنظر والسمع والملاحظة والارادة وما الى ذلك من الصفات . . . فانت اذن لا تعرف الاله الذي أتصوره ، وأحسب أنك لا تستطيع أن تتخيل مثلا أعلى من الصفات السالفة الذكر ، وانى لا أستغرب منك هذا القصور في الخيال ، لأنني اعتقد أن المثلث اذا استطاع أن يعبر عن نفسه ، لقال كذلك أن الله يتميز بصفات المثلث . كما تقول الدائرة أن طبيعة الله دائرية . وهكذا ينسب كل شيء الى الله من الصفات ما يراها في نفسه »

الله عند سبينوزا هو مجموع الأسباب والقوانين جميعا ، وقوته هي مجموع القوى العقلية الكامنة في كل أجزاء المادة المنتشرة في الزمان والمكان . لان لكل شيء في الوجود جانبا عقليا أي روحيا كما أن الامتداد أي الجسم جانب آخر .

ولكن ما هو العقل وما هي المادة ؟ ذهب الخيال الجامح ببعضهم الى حد القول بأن المادة روح كلها ، وليس الجسم الا محض فكرة ، كما جمد الخيال عند بعض آخر الى حد القول بأن العقل مادة كله ، وليست الافكار الا عمليات جسمية ، وذهب فريق ثالث الى أن العقل والمادة مستقل بعضهما عن بعض ، الا انهما متوازيان في عملهما ، أي أن العقل يفكر والجسم يتحرك دون ان يكون بين ذلك التفكير وهذه الحركة علاقة ما . يستعرض سبينوزا هذه الاراء جميعا فيرفضها جميعا ، فلا المادة روحية ولا العقل مادي ، ولا هما مستقلان متوازيان ، اذ ليس هناك شيئان متميزان : عقل ومادة ، حتى نبحث عن العلاقة بينهما ، بل ثمت شيء واحد فقط ، وعملية واحدة فحسب ، لها مظهران أو جانبان ، فانت تراها الآن باطنيا في صورة الفكرة ، ثم تراها خارجيا في صورة العمل . فالعقل والجسم وحدة لا تتجزأ ، وكل أجزاء الوجود لها هاتان الشعبتان الممتزجتان المتحدتان ، وبعبارة اخرى ، المادة التي في الكون والروح التي في الكون شيء واحد ذو وجهين ، وبعبارة ثالثة ، الطبيعة والله شيء واحد ، واذا كان الأمر كذلك من توحيد العقل والجسم ، اي الروح والمادة وجعلهما شيئا واحدا ، فلا اختلاف اذن بين الارادة والذكاء ، مادامت الارادة هي عبارة عن نزوع الجسم الى عمل معين ، والذكاء هو القوة الفكرية الخالصة

وهانحن أولاء قد رأينا أن أعمال الجسم وقوة الفكر ليسا الا ناحيتين من حقيقة واحدة .

الانسان اذن بعقله وجسمه وحدة لا تقبل التقسيم ، وعماد وجوده هو الرغبة اللاشعورية في البقاء ، فالرغبة اللاشعورية عند سبينوزا هي كنه الانسان وجوهره (قارن ارادة الحياة عند شوبنهور ، وارادة القوة عند نيتشه) وكل الغرائز خطط دبرتها الطبيعة لحفظ الفرد أو النوع ، والسرور والألم ينشآن عن اشباع الغرائز أو تعطيلها ، فليس السرور والالم سببا لرغباتنا كما يذهب فريق من المفكرين ، ولكنهما نتيجة لها . نحن لا نرغب في الشيء لانه يسرنا ، ولكنه يسرنا لاننا نرغب فيه ، ولا بد لنا أن نرغب فيه لانه يشبع لنا الغرائز التي تمهد لنا سبيل البقاء ولا بد أن يكون القارىء قد سارعت اليه النتيجة الطبيعية لهذه المقدمات ، وهي أن ليس ثمت ارادة حرة ، وأن الانسان مجبر على السير في طريق معينة مرسومة ، ليس له أن يحيد عنها قيد شعرة ، لان ضرورات الحياة تحدد الغرائز ، والغرائز تملي الرغبات ، والرغبات تخلق الافكار والاعمال المعينة . وقد يتوهم الانسان انه حر فيما يفكر ويعمل ، ومنشأ ذلك الظن الخاطيء أنه مدرك لرغباته ولكنه يجهل الاسباب التي تسوق اليه تلك الرغبات ، فيخيل اليه انها انما تولدت بمحض ارادته ، والحقيقة ان هناك من الدوافع الغريزية ما تحتم عليه أن يحقق هذه الرغبة أو تلك رغم أنفه ، فهو يدرك النتائج فقط ويجهل الاسباب الدافعة اليها ، ويشبه سبينوزا الانسان في ذلك بقطعة من الحجر الملقي ، الذي لا بد له من أن يسقط في مكان معين تبعا لقوة الدفعة ، فلو فرضنا ان ذلك الحجر الملقي له ادراك كالانسان ، لظن أنه انما يسقط في هذا المكان الخاص ، وفي هذه الساعة المعينة ، لأنه يريد ذلك ، وهذا لانه يجهل اليد التي دفعته فقسرته على تصرف لا يستطيع أن ينحرف عنه .

وهكذا تخضع أعمال الانسان لقوانين ثابتة ثبوت القوانين الهندسية ، ومعنى هذا أن الانسان جزء لا يتميز من سائر اجزاء الطبيعة ، بل يندمج فيها ويخضع لناموسها . الانسان ظاهرة مادية ككل الظواهر الاخرى يتحكم فيها ذلك القانون الشامل الذي يكمن وراء الكون جميعا ولا ينفصل عنه ، بل يكون معه كلا لا تنفصم عراه . وقد ضربنا مثلا بذلك الجسر (الكوبرى) وقوانينه الميكانيكية ، نحن أجزاء من ذلك التيار الذي يجرف أمامه كل شيء ، تيار القانون العام والسببية ، ولما كان ذلك القانون هو الله ، فنحن اذن أجزاء من الله تعالى ، ولو أن الأفراد تفنى بالموت ، الا أن

تلك الحقيقة الخالدة التى تتمثل فينا ، باقية لاتموت . اجسامنا خلايا فى جسم الجنس ، والأجناس أعضاء من جسم الحياة ، و بهذا الدمج — دمج الفرد فى الكل — يقول شاعر هندى « اعلم أن روحا واحدا ينظم نفسك فى الكل ، وانبذالوهم الذى يفصل الأجزاء عن كلها الشامل »

وباعتبار الانسان جزءا من كل ، فهو خالد . ذلك لأن القانون الذى يسيره لايفنى بفنائه كما قدمنا ، بل هو أبدى تظهر آثاره فى الأفراد بعد الأفراد . فأنت اذا محوت مثلثا مخطوطا على ورقة أمامك ، فليس معنى ذلك فناء القوانين التى تخضع لها المثلثات ، لأن هذا المثلث المعين الذى محوته ، لم يكن شخصية منفصلة عن زملائه المثلثات ، بل يضبط الجميع ناموس واحد لايعتريه التغير والفناء . وقل مثل هذا تماما فى أفراد الانسان ، يموت الواحد ويبقى قانونه ممثلا في سائر الأفراد ، وهذا هو معنى الخلود عند سبينوزا ، وهو كما ترى ليس خلودا لأفراد ، بل خلودا لقوة وقانون ، وذلك يتضمن بالطبع انكار الثواب فى الحياة الآخرة جزاء الفضيلة الدنيوية . وهو يقول فى ذلك : « ان هؤلاء الذين ينظرون للفضيله كأنها عبودية مفروضة عليهم من الله تعالى، ولا بد أن يمنحهم الله جزاء على قيامهم بهذا الفرض الثقيل ، انما هم أبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة على الوجه الصحيح . فالفضيلة أوطاعة الله هى سعادة فى نفسها ، يشعر الانسان بالطمأنينة والنعيم في أدائها ، فعلام تنتظر الجزاء ؟ انك تكون كرجل أسكنه سيده قصرا فخما وأعد له فيه كل ألوان النعيم ، فيظل يرتع فيه وينعم ، ثم هو بعد ذلك ينتظر من سيده أجر البقاء فى ذلك النعيم !!

والخلاصة أن الطبيعة تسير بمقتضى قوانين كامنة فى صورها كما تكمن قوانين الصوت مثلا فى جهاز الراديو ، فكما أنك لا تستطيع أن تقول هذا هو الجهاز المادى للراديو ، وتلك هى قوانينه النظرية منفصلة ، بل هما شىء واحد لاينفصل ، كذلك لا يمكنك أن تقول هذا هو العالم المادى وتلك هي القوة الروحية التى تسيره ، لأنهما متصلان فى وحدة لاتتجزأ . وبما أن هذه القوانين تسيطر على كل جزء من أجزاء الوجود — والانسان واحد منها — فالانسان يسير بمقتضى تلك القوانين الثابتة . ولا يتمتع بذرة من الحرية فى تصرفاته .

وهناك جوانب أخرى من فلسفة سبينوزا ، فقد كتب رسالة فى الاخلاق وأخرى فى النظام السياسى ، وكنا نحب أن نتناولهما بالشرح الموجز لو لا ضيق المقام ، فلعلنا نوفق الى تحقيق ذلك فى مقال آخر ؟

عمالقة الاشجار

للدكتور محمد بهجت

خريج جامعة كاليفورنيا

لاريب ان العالم كان مسكونا بكائنات على جانب عظيم من الضخامة ، فالعلم يخبرنا عن « الدينوسور » Dinosaur العظيم الذى يوجد هيكله العظمى الهائل بالمتحف البريطانى مع هياكل أشباهه من عظائم الحيوان وأغواله . وكذلك «العنقاء» ، أو الطير العظيم المسمي « بترو دا كتيلس » Petrodactyles، ولم يكن هذا الاخير طيرا بمعنى الكلمة أو وطواطا بل نوعا من العظايا الهائلة اكتسب خصوصية الطيران .

دبت هذه الحيوانات المرعبة على ظهر الارض فى العهد « الميوسينى » Miocene كما يسميه علماء طبقات الارض او عهد منتصف الحياة ، وذلك من ملايين السنين الخالية !! ويحتمل انها عاشت قبل الانسان بكثير .

ويظهر ان هذه الحيوانات انقرضت فجأة بفعل بتاثير بركان عنيف أبان معظم المخلوقات ، ثم تبع ذلك العصر الجليدى فاتى على آخرها ولم يترك لنا من آثارها الا عظاما نخرة أقامها العلم هياكل هائلة ووقف الانسان مبهوتا فاغراً فاه ، أما فى البحار فلا يزال بها من المخلوقات العظيمة ما لم تنقرض كأقربائها الدواب ، فالحوت الهائل يمخر البحار ويشق عبابها ، وأذكر انهم اقتنصوا وحشا منه فى المحيط الهادىء قرب شاطىء كاليفورنيا الجنوبى منذ سنتين وكان يزن سبعين طنا !!

كذلك كان الحال فى المملكة النباتية ، كانت لها عمالقتها ، كانت هناك أشجار ضخمة تؤلف غابات شاسعة تشمل المناطق الشمالية من أوربا وأمريكا ، ولا ريب انها أظلت وحمت الكثير من تلك الوحوش ، ومن هذه الاشجار شجرة « السيكويا » Sequoia — ملكة النباتات — التى قاست ولا ريب كل المحن التى ألمت بالكائنات الحية التى عاصرتها ولكنها نجت منها وعاشت الى هذا الوقت تخبرنا فى صمت رهيب، عن ماض بعيد ملىء بالكوارث والخطوب .

وتنتمي شجرة السيكويا الى العائلة المخروطية أى عائلة الصنوبر، ويوجد منها نوعان : « سيكويا سمپرفيرنس » Sequoia sempervirens